التنشئة السياسية للشباب السوري: المحدِّدات والاتجاهات

حازم نهار

تقديم

تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة العوامل التي تشكّل وعيَ الشباب السوري وهواجسَهم وطموحاتهم. ولهذا الأمر أهميةٌ كبيرةٌ، إذ يَسْمح لهم وللمعنيين بأوضاعهم ـ أحزابًا ومؤسساتٍ وجمعياتٍ ومَراكزَ ثقافية ـ برصد الأسباب الكامنة وراء واقعهم الحالي.

وإذا كنّا قد عَنْونّا هذه الدراسةَ بـ «التنشئة السياسية للشباب» فلقناعتنا بأنّ السياسة، بمفهومها العامّ والشامل، هي المحورُ الناظمُ لمجمل الحياة الفردية والعامة... حتى لو كان الأفرادُ يُنْكرونها، ويَنْفون علاقتَهم بها.

لكنْ تقف أمام دراسات كهذه، خاصةً في سوريا، عقباتٌ عديدةٌ. لعلّ أبرزَها هو عدمُ توافر الإحصائيات والدراسات الميدانية الجادّة، بما يَجْعل السيرَ في مثل هذه الأبحاث كالحديث في العموميات التي تَصْلح على أيّ شريحة أخرى في المجتمع السوري، بل وفي مجتمعاتٍ أخرى شبيهة، أو تصبح الاستنتاجاتُ أقرَب ما تكون إلى المشاهدات الشخصية والذاتية. ومع ذلك نأمل أن تشكّل هذه الدراسةُ مقاربةً أوليةً لدراسات أكثرَ عمقًا تعتمد العملَ الإحصائي، أو مقدمةً نظريةً تحتاج إلى الاختبار واقعيّاً.

I ـ مفاهيم أولية

• **السياسة:** هي مجملُ ما يتعلّق، تفكيرًا وممارسةً، بالشأن العامّ. وهي، من هذا المنطلق، كالهواء الذي يحيط بنا ونتحرك داخله. إنّها عاملٌ وثيقُ الصلة بكلّ مظاهر الفعل الإنساني، سواءٌ أأحببنا ذلك أمْ كرهناه. أما الإيديولوجيا السياسية فهي تلك القواعدُ الذهنيةُ المتبطّنة في سلوك الأفراد والقيم السائدة في الحياة اليومية في المجتمع، والتي تُنتج سلوكًا سياسيّاً محدَّدًا عند الفرد.

• **مرحلة الشباب:** هناك اختلافٌ واسعٌ في تحديد هذه المساحة الزمنية. فبعضُهم يَقْصرها على المرحلة الممتدة ما بين نهاية المراهقة ونهاية الدراسة الجامعية، أيْ ما بين ١٧ و٢٤ سنة وسطيّاً. وهناك مَنْ يوسّع إطارها. لكنْ ما دمنا لسنا بصدد دراسة ميدانية إحصائية، فإنّه يُمْكن أن نقول بصفة إجمالية إنّها الفترة الواقعة بين نهاية المراهقة وبلوغ مرحلة النضج.

من السمات البارزة في هذه المرحلة الافتقارُ إلى التوازن والاستقرار، إذ تنطبع بشكل من أشكال الاضطراب والتذبذب، الأمرُ الذي يجعل من الشباب الفئةَ الأكثرَ عرضةً للصراعات والإحباطات. وأسبابُ ذلك عديدة، منها أنّ مرحلةَ الشباب هي الميدانُ الحيويُّ الذي تتصارع فيه وعليه جميعُ المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع. ومنها أيضًا ما يعود إلى ما يعتري تلك المرحلةَ من رغباتٍ فيزيولوجيةٍ مشحونةٍ بالتوتّرات الداخلية، التي تختلف حدّتُها بحسب نظامِ القيم السائدة في المجتمع وطبيعةِ الممنوعات والمسموحات.

السمة البارزة الأخرى، والمرتبطةُ بالضرورة بالسمة السابقة، هي البحثُ عن الطمأنينة النفسية. فالحاجة إلى خفضِ التوتر النفسي، وتحديدِ الهوية والانتماء، وتأكيدِ الذات، والرغبةِ في الاستقلال، عواملُ ضاغطةٌ خلال هذه المرحلة. وهذا كلُّه يدفع الشبابَ إلى البحث عن الموقع والدور الملائمَيْن، وإلى الانخراط في مشاريع متنوعة لتحقيق هذه الحاجات.

• **التنشئة الإيديولوجية ـ السياسية:** ويُقصد بها تشكيلُ الوعي السياسي، أيْ مجملُ العمليات التي يتمّ من خلالها إكسابُ الفرد سلوكًا ومعاييرَ واتجاهاتٍ سياسيةً متناسبةً مع أدوار مجتمعية معينة، حتى لو لم يمارسْ نشاطًا سياسيّاً في حزب أو جمعية أو اهتمامًا بالشأن العامّ. وتكون هذه العملية مستمرةً منذ الولادة وحتى الممات. وتُعدُّ مرحلةُ الشباب من أهمّ مراحل التنشئة الإيديولوجية السياسية بحكم السمات العامة لهذه المرحلة؛ فخلالَها تبدأُ بالتكون مواقفُ الفرد السياسية، وقيمُه الاجتماعية، وأنماطُ سلوكه الاجتماعي ـ السياسي.[١]

١ ـ محمد قاسم عبد الله، «التنشئة الاجتماعية للتفكير السياسي،» مجلة **الفكر العربي**، عدد ٩٧، صيف ١٩٩٩، ص ١٨١.

التنشئة السياسية للشباب السوري: المحدِّدات والاتجاهات

II ـ عوامل التنشئة السياسية عند الشباب السوري

تَلْعب عواملُ عديدةٌ في تشكيل الوعي السياسي عند الشباب السوري. بعضُها ذاتيٌّ خاصٌّ بالفرد، كالجنس والذكاء والخبرات الذاتية والوضع النفسي. وبعضُها موضوعيٌّ قائم منذ ولادة الفرد، كالفئة الاقتصادية الاجتماعية التي ينتمي إليها، والانتماءِ الجغرافي (ريفي، مديني). وبعضُها الآخر موضوعيٌّ بحكم طبيعة المجتمع والمناخ العامّ السائد فيه ـ وتُعتبر هذه الأخيرةُ الأهمَّ بالطبع، لكوننا نتحدث عن الإطار العامّ الناظم لتشكيل الوعي السياسي.

الجدير ذكرُه أنّ كثيرًا من الشباب السوري يكاد لا يَعْرف شيئًا عن «قانون الطوارئ.» وليس عنده أدنى اطّلاع على دستور بلاده. ولا يَذْكر إلاّ أسماءَ عددٍ محدودٍ من الوزراء وأعضاءِ مجلس الشعب. ولا يَعْرف موقعَ مدينة «القنيطرة» السورية. كما لا يَعْرف متى احتُلّتْ هضبةُ الجولان، وهل عادت كاملةً إلى سوريا. وليس لديه اطّلاعٌ على المكوّنات البشرية للشعب السوري. ويستغرب قسمٌ كبيرٌ عندما يَسْمع أنّ الأكراد يشكّلون ١٠٪ من هذا الشعب. ولا يَعْرف الغالبيةُ منهم حقوقَهم الطبيعية، ويَنْظر إلى ما يجري من تجاوزات لهذه الحقوق على أنّه أمرٌ طبيعي. فما هو السرّ في ذلك؟

أ ـ العائلة السورية: ما زالت العائلةُ نواةَ التنظيم الاجتماعي، إذ تتمحور حولَها حياةُ الأفراد، بصرف النظر عن النمط المعيشي (مدني، ريفي،..) والوضع الطبقي والانتماءاتِ الطائفية والإثنية. ذلك أنّ العائلة السورية هي الوسيطُ بين الفرد والمجتمع، والمؤسسةُ التي يتوارث منها الأفرادُ انتماءاتهم المختلفة ـ بما فيها في معظم الأحيان الانتماءاتُ الثقافيةُ والسياسيةُ.

تَزْرع العائلةُ السوريةُ (كسائر العائلات العربية) في أفرادها مجموعةً من القيم السلبية التي تؤثّر في سلوكهم وشخصياتهم. وهكذا يتعلّم الفردُ منذ مرحلة الطفولة قيمَ الطاعةِ والخجلِ والمسايرة؛ ذلك لأنّ هذه العائلة ـ من جهة ـ محكومةٌ بالسلطة الأبوية القائمة على ثنائية الاستبداد/الرضوخ، ولأنّها ـ من جهةٍ ثانيةٍ ـ قائمةٌ على تمجيد الذكورة، مستمدَّةً مشروعيَّتَها في ذلك من الدين والتقاليد الاجتماعية.[١] يضاف إلى ذلك، بحُكْم ما تعرَّض له المجتمعُ السوريُّ خلال العقود الثلاثة الأخيرة على الصعيد السياسي، أنّ العائلة السورية تقوم بنقل الخوفِ المتوارَثِ إلى أبنائها، وتَلْعب دورًا داعمًا لاستمرار العلاقات الاستبدادية في المجتمع بكافة تجلّياتها، الدينيةِ والتعليميةِ والسياسية... إلخ. وهذا يعني أنّ تربيةَ الفرد داخل هذه العائلة يتشارك فيها الدينُ والتقاليدُ الاجتماعيةُ والسلطةُ السياسيةُ بشكلٍ متناغم.[٢]

ب ـ نظام التعليم المدرسي والجامعي: لا يوجد فرقٌ بين المدرسة والجامعة من حيث نهجُ التعليم السائدِ فيهما. فهذا الأخير يقوم أساسًا على التلقين، فيُسهمَ في تعميق قيم الطاعة والخوف والتفكير الغيبي والأوهام والأساطير، بدلاً من قيم التمرّد والتغيير والشجاعة والتفكير العلمي.[٣] والحال أنّ الكِتابَ المدرسي ما زال يحتلّ مكانةً بارزةً في التعليم، وهو الأداة الأساسية في تنفيذ المنهاج المقرَّر؛ في حين أنّ النُّظُم التعليمية الحديثة لا تركِّز على تدريب الطفل لحفظ مضمون تلك الكتب، بقدْر ما تتّجه نحو تنمية قدراته على الإدراك والتفكير والتفاعل معَ الواقع.

تفتقر العمليةُ التعليميةُ في سورية إلى تدعيم المفاهيم الحديثة عن الحياة والطبيعة والتاريخ، الأمرُ الذي يجعل هذه العلومَ المختلفةَ مفصولةً في ذهن الطالب، ويمنعه ذلك من تشكيل رؤيةٍ

---

١ ـ هشام شرابي، **مقدّمات لدراسة المجتمع العربي** (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥)، ص ٢٧ ـ ٦٤.

٢ ـ طلال عبد المعطي مصطفى وعدنان أحمد مسلم، «ثقافة الشباب السوري،» مجلة **الفكر العربي**، شتاء ٢٠٠٠، عدد ٩٩، ص ٥.

٣ ـ مصطفى حجازي، **سيكولوجية الإنسان المقهور** (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٠، الطبعة الثانية)، ص ١٤٥.

التعليم يقوم على التلقين، فيُسْهم في تعميق قيم الطاعة والخوف والتفكير الغيبي بدلاً من قيم التمرُّد والشجاعة والتفكير العلمي

عامةٍ منسجمةٍ مع العصر، فيبقى حاملاً في رأسه قوانينَ علميةً مجزوءةً إلى جانب غيبيات تتناقض معها. أما من حيث مضامين المواد التدريسية، فما زالت هي الأخرى مقطوعةَ الصلةِ عن العصر والحاجات الواقعية: فاللغة العربية مثلاً ما زالت محكومةً بالنصوص التراثية، ولا يَظْهر منها إلاّ وجهُها الأدبي. ففي المرحلة الابتدائية، أيْ مرحلةِ تفتُّح الطفل وفضولِه وحيويّتِه، يجري إرهاقُه بتعلّم أساليب لغوية وثقافية لعصر آخر. وهكذا يعاني الفردُ منذ البدء تجربةَ الفصل بين التعلّم والفهم، ويصبح الاستظهارُ بدون فهمٍ الوسيلةَ الأولى لتمثُّل الأفكار والقيم.

أمّا دراسةُ وتدريسُ التاريخ فيفتقران إلى عوامل الموضوعية والتحليل المنهجي للأحداث، وهو تحليلٌ لا يهتمّ بمعرفة **أخبار** الماضي بقدْر ما يهتمّ **بمنطق** الأحداث والواقع. فمثلاً يجري تدريسُ المحطّات الهامة في التاريخ بوصفها نتيجةً لمؤامراتٍ محبوكةٍ. وأحيانًا نكون أمام فترات زمنية معيّنة لا نَعْلم عنها شيئًا، لكونها مازالت تتعلّق بالسلطة القائمة أو بمصالح بعضِ المتنفّذين. والحال أنّ دراسةَ التاريخ بالطريقة الموصوفة لا تَسْمح بنموّ عقليةٍ موضوعيةٍ تتبنّى التفسيرَ العلميَّ للواقعةِ التاريخية، بما يعني أيضًا عدمَ القدرة على قراءة الأحداث الواقعية وتفسيرِها تفسيرًا صائبًا، وعدمَ القدرة على النظر إلى المستقبل بشكلٍ صحيح لمعرفة الدور المطلوب وكيفية تغيير الواقع.

كذلك الأمرُ بالنسبة إلى تدريس مادة التربية الدينية. فهذه التربية تقوم في سوريّة، أساسًا، على تعليم الطقوس الدينية والمعارفِ عن العالم الآخر والرؤى الخرافية عن الآخرين، بدلاً من توسيع ميدانها لتَشْمل الإنسانَ وتعزيزَ منطق التسامح الديني وتجديدَ الفكر الديني ليَنْسجم مع مقتضيات العصر.[١]

ويزيد الأمرُ سوءًا مع السيطرة الكليّة للسلطة على المؤسسات التعليمية. فقد أضافت السلطةُ عددًا من المقرَّرات بدءًا من المرحلة الابتدائية وحتى الجامعة: كالتربية العسكرية، والتربية الوطنية أو القومية، والثقافة القومية الاشتراكية التي تَهْدف إلى تحقيق تعبئةٍ واسعةٍ بإيديولوجية الحزب الحاكم وحسب.

ثم إنّ فصل المدارس في المرحلتين الإعدادية والثانوية إلى «مدارس ذُكور» و«مدارس إناث» يضع المراهقين في وجهِ محرّماتٍ اجتماعيةٍ ورسمية، الأمرُ الذي يَسْمح بقيامِ تصوّراتٍ وهميةٍ ومشوّهةٍ لكلّ جنسٍ عن الآخر، ليصل الأمرُ بهم في الجامعة إلى إقامة علاقاتٍ عاطفيةٍ مَرَضيّة، أو غيرِ سويّة من الناحية الجنسية أحيانًا.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى تبدأ عمليةُ تطويع الفرد على مستوى الوعي من خلال «منظمة الطلائع» التي تأسَّستْ في العام ١٩٧٤ . ففي كلّ مدرسة يوزَّع التلاميذُ في فِرَقٍ ووحدات، ليتمّ تليقنُهم إيديولوجيةَ الحزب، وهذا ما يَجْعلهم ينتقلون بشكلٍ غريزيّ نحو تقبُّل أشكال التطويع الأخرى.[٢]

في المرحلة الإعدادية ينسَّب الأفرادُ إلى «اتحاد شبيبة الثورة،» وهي منظمةٌ رديفةٌ لحزب البعث وتأسَّستْ عامَ ١٩٦٣، ليصبح التنسيبُ إلى الحزب أمرًا روتينيًا في بداية المرحلة الثانوية، دون أيّ نقاش أو حوار وفي غياب أيّ تقديرٍ لطبيعة المرحلة التي يمرّ بها الفردُ ـ وهي مرحلةٌ لا تؤهّله في ذلك الوقت لاتخاذ قرار بالانضمام إلى حزب سياسي أو تبنّي رؤية فكرية سياسية محدّدة. والحق أنّ عاملَ الخوف الذي تَنْقله العائلةُ إلى أبنائها، بحكم خبرتها الماضية بالسلطة وآلياتها؛ وعاملِ رَهْن التوظيف والسفرِ والوضعِ الشخصيِّ للفرد بالبعثيين؛ وعاملَ الإغراء

١ ـ حازم نهار، **التأخر في المجتمع العربي/دراسة تحليلية نفسية** (بحث علمي لنيل شهادة MD في الطب البشري، فصل: «طرائق تدريس المواد التعليمية»)، (بيروت: دار الينابيع، ١٩٩٤).

٢ ـ تميم وماجد، «أوضاع الشباب السوري،» فصل من كتاب **حقوق الإنسان والديموقراطية في سورية** (منشورات أوراب واللجنة العربية لحقوق الإنسان: فيوليت داغر وآخرون، ٢٠٠١)، ص ٣٩١.

التنشئة السياسية للشباب السوري: المحدِّدات والاتجاهات

بإضافة عدد من العلامات إلى المجموع العامّ في الثانوية للحزبيين والشبيبيين والصاعقة والمظليّين... كلُّها تساهم في دفع المتردّدين إلى الانتساب إلى الحزب في مرحلة لاحقة.

في الجامعة، يُرْصد الطالبُ منذ اللحظة الأولى؛ فانتسابُه إلى الجامعة يَقْترن بتقديمه استمارات عديدةً توزَّع على الفروع الأمنية. ثم يجد «الاتحادَ الوطنيَّ لطلبة سوريا» في انتظاره، بعد أن أصبح هذا الاتحادُ هو الآخرُ إلزاميّاً وتابعًا للحزب الحاكم. تُضاف، إلى ذلك، دروسُ التدريب العسكري والمعسكرات الصيفية. وتتضافر، من ثم، جهودُ اتحاد الطلبة، ومقرّاتِ التدريب العسكري، والفرقِ الحزبيةِ المتناثرةِ في جميع الكليات، لإكمالِ دائرةٍ مغلقةٍ نادرًا ما يُفْلِتُ منها أحد.

نشير أيضًا إلى أنّ بعضَ عناصر الهيئات الإدارية يكلَّفون بمهامّ أمنية لرصدِ أوضاع الجميع. أما علاقة الطلاب بـ «الاتحاد» فهي علاقة تجنُّب، إذ لا يساهم في نشاطاته وفعاليته سوى عددٍ محدودٍ منهم؛ ويَظْهر ذلك في المؤتمرات الطلابية التي تَفْتقر إلى أيّ مبادرة جدّية تجاه مشاكل الطلاب والنظام التعليمي بشكل عامّ. وأما النشاط السياسي للتيارات والأحزاب السياسية الأخرى في الجامعة فهو شبهُ معدوم، بموجب ميثاق «الجبهة الوطنية التقدمية» الذي يحظّر العملَ في صفوف الطلبة والجيش.

واختصارًا، فإنّ الطالب الجامعي السوري (والعربي عامةً)، بدلاً من أن يتمتع بفترةٍ نموذجيةٍ بحكم انفلاته النسبي من العائلة، يَصْطدم مجددًا بمؤسساتٍ أقوى، وبآلياتٍ تعليميةٍ مرهِقةٍ، وبهيئةِ تدريسٍ تفتقد الكفاءاتِ المطلوبة.[1]

ج ـ المؤسسات الوسيطة (النقابات والاتحادات): تُخرِّج الجامعاتُ السوريةُ ألوفَ الشباب الذين يَحْملون شهاداتٍ لا عِلْمَ فيها، ولا يتوافر لهم فرصُ العمل المناسبة. وحتى في حال توافُر الفرص يكتشف الشبابُ المتخرِّجُ حديثًا المفارقاتِ العديدةَ بين ما تَعَلَّمه والعملِ الذي يمارسه. ويقترن التخرُّجُ بالانضمام إلى المؤسسات الوسيطة (النقابات، الاتحادات) التي تعبِّر، هي الأخرى، عن القيم الرسمية السائدة.

والحقّ أنّ النقابة، بحُكْم الآليّات السائدة فيها وفسادِ عناصرها القيادية، جَعَلَتْ أعضاءَها (الشبابَ على الأخص) ينفضّون عنها ولا يستذكرونها إلا في الأوقات التي يحتاجون فيها إلى بعض الأوراق التي تُعِينهم على مزاولة المهنة أو السفر. ويتعامل الشباب مع النقابة بوصفها إحدى مؤسّسات الدولة، بل ومؤسّسةً ملحقةً بحزب البعث، ويعتبرون ذلك أمرًا طبيعيّاً. أما فكرة استقلالية النقابة عن السلطة وأجهزة الدولة، فهي خارجةٌ عن تصوُّراتهم بحكم سنوات الإعداد الطويلة التي تعرّضوا لها قبل الانتساب إلى النقابة، وبحُكْم أنّ معظم الشباب السوري خلال ربع القرن الأخير لا يَعْرف شَيئًا عن آليّات العمل النقابي السويّة، أو عن تاريخ النقابات السوريّة التي حُلَّتْ من قِبل السلطة في نيسان (أبريل) عامَ ١٩٨٠، ولا عن اعتقال عدد من أعضائها الناشطين. كما لا يَعْرف معظمُ الشباب أنّ النقابات أعيدتْ إلى العمل في منتصف عام ١٩٨١، ولكنْ بعد إلغاء قوانينها التنظيمية ونُظُمِها السابقة التي صَدرتْ عامَ ١٩٧٣، واستحداثِ قوانينَ جديدةٍ متخلِّفةٍ عن سابقتها تكبِّل النقاباتِ وتَسْمح بإلحاقها بالسلطة.

ولا يقف الأمرُ عند هذا الحدّ. ذلك أنّ التدخل المباشر للسلطة في العمل النقابي، وتكليفَ النقابة بمهماتٍ أمنيةٍ بغيةَ ضبطِ إيقاع أعضائها وتهديدِهم بوسائل عيشهم ومحاصرتِهم مهنيّاً إنْ لزمَ الأمر... كلّ ذلك أَفْسح المجالَ لظهور قيادات نقابية فاسدة زادت الأمرَ سوءًا، وفاقمتْ من ابتعاد الشباب عن نقاباتهم.

د ـ وسائل الإعلام المحلية والعالمية: جرى تكريسُ الإعلام السوري على مدى عقود من أجل الدعاية للسلطة والحزب الحاكم. فراح هذا الإعلامُ يتّخذ طابعَ التحشيد الذي يَفْتقر إلى

١ ـ محمد سبيلا: «الشباب والإيديولوجيات،» مجلة **الوحدة**، عدد ٣٩ كانون الأول ١٩٨٧، ص ١٧ ـ ٢٢.

يُعتبر إحساسُ اللامبالاة هو الاتجاه السائد لدى الشباب السوري، وهو يتلازم مع حالةٍ من التشظّي على مستوى القناعات الفكرية والسياسية

أيّ شكلٍ من أشكال النهوض بوعي الفرد، والارتقاءِ بوجدانه الإنساني وحسّه الوطني، وتقديمِ المعرفة والتنوعِ الخلاّق والمتعةِ في آن واحد.

والحال أنّ احتكار وسائل الإعلام، وتأميمَ الأفكار والآراء، وممارسةَ سياسة التعتيم الإعلامي، كلّ ذلك جعل المجتمعَ هزيلاً، وعَمّقَ حالةَ اللامبالاة عند الناس، وتَرك أثرًا واسعًا في طرق تعبيرهم التي استندت إلى الاصطناع في تقديم البرامج وإجراء الندوات والمقابلات التلفزيونية: فكلُّ شيء مُعَدٌّ سلفًا، السؤالُ والجواب، وكلُّ شيء تحت الرصد والسيطرة. وتكفي متابعةُ برامج الأطفال (برنامج طلائع البعث) وبرامج الشبيبة والطلبة لنَعْرف إلى أيّ مدًى جرى نزعُ الحالةِ العفويةِ في التعبير.

لمْ يتغيّر الإعلامُ خلال السنوات الخمس الأخيرة، ومازال قائمًا على مجموعة المرتكزات التي تنتمي إلى الماضي: فالجرائد هي هيْ، والتلفزيون ما زال على حاله البائسة بآليّاته وبرامجه ووجباته الإعلامية الفقيرة، على الرغم من التطور الهائل في الإعلام. غير أنّ هذا التطور سَمَحَ للشباب السوري بتوسيع دائرة معارفهم وإيجادِ طرائقَ تعبيرٍ خاصةٍ بهم من خلال مواقع الإنترنت العديدة على الأخصّ، لكنّه لم يَسْمح لهم إلى الآنَ بتكوين اتجاهات عامة ورؤًى محدّدة، في الوقت الذي تزداد فيه حاجتُهم إلى الانتماء وإلى تشكيل اتجاهاتهم الخاصة في هذا العالم المعقّد والمتشابك والمليء بالأفكار المختلفة.

هـ ـ المناخ السياسي العامّ: خلال العقود الأربعة الأخيرة جرى تقزيمُ الحياة السياسية، لتقوم تدريجيّاً على حزبٍ واحد ولاعبٍ واحد وسيطرةٍ أحادية وشاملة على كلّ مقوّمات ونشاطات الحياة المجتمعية والمدنية والإعلامية وغيرها، دون منافسة أو رقابة على ما يجري، خاصةً مع وجود المادة الثامنة من دستور عام ١٩٧٣ التي أكّدتْ أنّ «حزبَ البعث العربي الاشتراكي هو الحزبُ القائدُ للدولة والمجتمع، ويقود جبهةً وطنيةً تقدميةً تَعْمل على توحيدِ طاقاتِ جماهير الشعب في خدمة الأمة العربية.»

يضاف إلى ذلك أنّ «ميثاق الجبهة،» الذي وَقّعته الأحزابُ آنذاك، وتعهّدْت فيه باستبعاد الطلاب/الشباب من دائرة نشاطها، كان بدايةَ نهايةِ تلك الأحزاب، خاصةً مع حرمانها من فتح مقارّ رسميةٍ لها، ومن الإعلانِ عن برامجها ونشاطاتها، ومن إصدار صحافة حزبية حقيقية، ليصبح معظمُها تدريجيّاً مؤسساتٍ متخشبةً لا تَمْلك إلاّ عددًا محدودًا من الكوادر الهرمة.

هذه الآليّات حَوّلتْ مؤسساتِ الدولة والمجتمع إلى «مَساكن» لا تحتوي على أيّ شكل من أشكال الحياة المنتِجة، وأعادت صياغةَ البشر ليكونوا، في معظمهم، دون طموح وملامحَ وتمايزٍ، ولتصبح البلادُ أمام مشكلة سياسية ـ أخلاقية / إنسانية تعيد إنتاجَ نفسِها في كلّ اللحظات والمجالات.

هذا المناخ السياسي أثّر، ولا يزال، في الاتجاهات السياسية والحياتية للشباب السوري، وفي نموّهم الروحي والقيمي. ويُعتبر إحساسُ اللامبالاة الاتجاهَ السائدَ، وهو يتلازم مع حالة من التشظّي على مستوى القناعات الفكرية والسياسية، حالةٍ من الآراء والتصورات الشبابية التي لا يَجْمعها جامعٌ. والحق أنّ هذا الاتجاه موجود خارج صفوف حزب البعث وداخله أيضًا: فالمنتمون إلى الحزب غالبًا ما ينقطعون عن حضور اجتماعاته، ويَحْضرون عندما يتحوّل الأمرُ إلى مشكلة حقيقية في حياتهم، أو من أجل دفع الاشتراكات المالية المتراكمة. هذا السلوك إزاء الحزب لم يكن كذلك خلال الثمانينات مثلاً؛ فقد كانت تترتّب على عدم الحضور إجراءاتٌ شديدةٌ، كالاستدعاءات المتوالية من قبل الأجهزة الأمنية. ويعبّر اتجاهُ اللامبالاة عن نفسه بأشكال عديدة، كالرغبة في الهجرة، أو الرغبةِ في تحقيق المصالح الفردية بأيّ طريقة كانت، أو سيادة القيم الاستهلاكية.

أما الموجودون داخل أحزاب «الجبهة» فعددُهم محدودٌ، وهم موجودون بحكم وجود آبائهم أو أقاربهم فيها (إذ نادرًا ما ينتمي الشابُّ إلى حزبٍ غيرِ الذي ينتمي إليه والدُه). وغالبًا ما يكون نشاطُهم مقتصرًا على الفعّاليّات الأدبية والفنية

التنشئة السياسية للشباب السوري: المحدِّدات والاتجاهات

والاجتماعية وأعمال الكشّافة. وبحكم سيطرةِ ما هو سياسيٌّ على كل مجالات الحياة، فإنّ مثلَ تلك النشاطات لا تكون منتِجةً، ولا تتضمّن جوانبَ إبداعيةً حقيقيةً على صعيد الفرد أو المجتمع. فانعدام المناخ الديموقراطي وثيقُ الصلة بعدم وجود سينما حقيقية أو مسرح جادّ أو نشاط فني أدبي ذي قيمة من أيّ نوع، ومن ثم تغدو مثلُ هذه النشاطات مجردَ أشكالٍ لتفريغ الحيوية المكبوتة عند الشباب. وبشكلٍ عامّ فقد لعبت الأحزابُ السياسيةُ على اختلاف مواقعها وانتماءاتها دورًا سلبيّاً في حياة أفرادها. ذلك أنّ الشعارات الكبيرة، وتقديسَ الجماعة إلى درجة إلغاء أيّ قيمة للفرد تجاهها، حوّلت الأفرادَ إلى دمًى، وأنتجتْ تشوُّهاتٍ على صعيد الفرد والجماعة في آن معًا.

هناك اتجاهٌ آخرُ عند الشباب يَبْرز في تصعيد انتمائهم إلى العائلة أو العشيرة أو الطائفة أو الأقلية القومية، على حساب الهوية الوطنية السورية. فهناك بعضُ الجمعيات ذات النشاط الخيري والاجتماعي توفِّر مثلَ هذه الفرصة للشباب: كالجمعية الشركسية، والجمعيات المسيحية والإسلامية، والجمعيات الخاصة بالأقليات الدينية (مثل «المجلس الأعلى الإسماعيلي»)، فضلاً عن الجمعيات التي تقوم على مستوى العائلات بهدف المشاركة في حلّ بعض الأزمات المادية الخاصة بالشباب.[1] أما الاتجاه الديني فهو عظيم الحضور، وقد لعبتْ كلُّ العوامل التي ذكرناها سابقًا في توسيع انتشاره. وهو متفاوت في حدّته: بدءًا من القناعات الدينية البسيطة، مرورًا بالاتجاهات الدينية الإصلاحية، والاتجاهات الدينية التقليدية غير السياسية، وصولاً إلى التيارات الإسلامية المتطرفة (وهو الاتجاه الأكثر اتساعًا، خاصةً بعد كلّ التطورات الحاصلة في المنطقة).

عمومًا يجد الشبابُ السوريُّ نفسَه اليومَ في حالة تخارجٍ مع ما يحيط به، أو رفضٍ لكلِّ ما يُعرض عليه، ولا يكاد يقيم وزنًا لما هو موجود من أحزاب سياسية، خاصةً في ظل قصور خطابها السياسي لغةً ومحتوى، وعدم وجود أشكال إبداعية جديدة من الممارسة السياسية، ومع استمرار التيارات السياسية التقليدية التي تتنافس على استقطابهم.

III ـ الشباب السوري والدور المطلوب

تقف اليوم جميعُ القوى السياسية (البعثية والناصرية والماركسية والإسلامية)، وجميعُ التيارات الفكرية (الحداثية والتراثية والتوفيقية)، عاجزةً أمام الفئة الأوسع من الشباب السوري، أي الشباب الذين لم يحدِّدوا خياراتِهم وانتماءاتِهم بعد. فما عاد أحدٌ قادرًا على استقطابهم وإغرائهم، خاصةً مع هذا التطور الهائل في العلوم والتكنولوجيا والتغيرات العالمية المتسارعة. وأكثرُهم يقف اليومَ حائرًا أمام أحواله، متردِّدًا في خياراته، ومشوَّشًا في انتماءاته، وعاجزًا عن التقدّم باتجاه تحسين أوضاعه الاقتصادية، ومليئًا بالهواجس وعدم الاطمئنان تجاه المستقبل.

هذه الأحوال تتطلّب مبادرةَ الشباب أنفسهم، وسعيَهم إلى بلورة خياراتهم ورؤاهم، ومحاولةَ تجديدِ ما هو موجودٌ، أو إبداع أشكالٍ جديدةٍ للتعبير عن أنفسهم، والمشاركة في تحسين أوضاعهم، فيكون لهم دور في بناء وطنهم. والحقّ أنّ هذا الدور قد يكون هو الأكثرَ أهميةً والأشدَّ حسمًا في مستقبل وطنهم.

حازم نهار
كاتب سوري.

١ ـ تميم وماجد: «أوضاع الشباب السوري،» مرجع سابق.